المعـــرفة والبنـــاء الاجتماعى

مدخل لوجهة النظر الكلاسكية فى علم الاجتماع المعرفى(*)

تأليف : بتر هميلتون

عرض : محمد عبد النبى(**)

تعد قضية العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى القضية المحورية التى يدور حولها النقاش والجدل فى ذلك الفرع من فروع علم الاجتماع الذى يطلق عليه علم الاجتماع المعرفى Sociology of Knowledge وتكتشف المناقشات الدائرة فى هذا المجال عن وجود قناعة مشتركة بين الفلاسفة والمفكرين ـــ على اختلاف منطلقاتهم الفكرية ـــ بوجود رابطة ما بين المعرفة باشكالها ومستوياتها المختلفة والاطر الاجتماعية التى توجد فيها . غير أن التتبع لهذه المناقشـــات سرعان ما يكتشف وجود تباين بل وتناقض فى مواقف هؤلاء الفلاسفة والمفكرين عند تحديدهم لطبيعة هذه العلاقة والعوامل الفاعلة فيها . فريق يرى المعرفة باعتبارها شيئا ازليا سابقا على الوجود او كمتغير مستقل يؤدى تطورها الى احداث تغيرات لاحقة فى البنـــاء الاجتماعى . ومن ثم نجدهم يربطون بين سيادة أنماط معينة من المعرفة (دينية أو ميتافيزيقية أو وضعية .. الخ) وبين ظهور اشكال معينة من النظم الاجتماعية . ويطلق على هؤلاء انصار الاتجاه المثـــالى . وفريق آخـــر يرى المعـــرفة كمتغير تابع او ظاهرة لاحقة Epiphenomenon أو نتاج لاوضاع مادية قائمة وان وجودها وتطورها يرتبط بوجود هذه الاوضاع وتغيرها ، ويطلق على هؤلاء انصار الاتجاه المادى . ويطرح كل فريق منهما نموذجا تحليليا paradigm يرى أنه اكثر كفاءة فى تناول العلاقة القائمة بين المعرفة والبناء الاجتماعى .

ويأتى الكتاب الذى نعرض له هنا ليشـير الى العديد من الاسهامات التى ابرزت معالم علم الاجتماع المعرفى ، وحددت طبيعة المناقشات الدائرة فى ميدانه . ويعترف المؤلف منذ البداية ان ما قدمه فى ثنايا كتابه لا يعد عرضا شاملا لهذه الاسهامات ، وانما هو مجرد جولة فكرية يلتقط خلالها ابرز هذه الاسهامات التى يرى ـــ المؤلف ـــ انه كان لهـــا الاثر الاكبر فى تطور المناقشـــات التى

---

* Hamilton, P., Knowledge and Social Structure : An introduction to the classical argument in sociology of knowledge, Rutledge and Kegan Paul ; London, 1977.

(**) مدرس مساعد بقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة .

تعرضت للعلاقة بين المعرفة والبنـــاء الاجتماعى . وقد حاول المؤلف خلال هذه الجولة أن يشير الى المنطلق الفلسفى لكل اتجاه والمؤثرات الفكرية التى طور فى اطارها انصاره افكارهم وجوهر الاسهام الذى يضيفه كل منهم فى هذا المجال . وقد جاء الكتاب متضمنا تسعة فصول وخاتمة .

يتناول الفصل الاول فلسفة التنوير Enlightenment وبدايات العلم الاجتماعى ، يشير المؤلف خلاله الى الادراك المبكر من جانب عدد من المفكرين ـــ أمثال فيكو Vico فى مؤلفه « العـــلم الجديد » ومونتســـكيو Montesquieu فى مؤلفه « روح القوانين » ـــ للروابط القائمة بين المعرفة والبنـــاء الاجتماعى بصفة عامة ، وكيف أن فلسفة التنوير قد شكلت أيديولوجية محددة جعلت بدايات العلم الاجتماعى بعامة وعلم الاجتماع المعرفى بخاصة مرتبطة بنشـــأة النظرية الاجتماعية . ان اهمية التنوير ـــ ســـواء كحركة فكرية او فترة تطور فكرى شـامل ـــ تزيد عن مجرد الاشارة اليها على انها قد شكلت بداية علم الاجتماع وعلم الاجتماع المعرفى ، ذلك لان فلاســـفة التنوير قد وجهوا كل اهتمامهم ـــ فى اطار حركة النقد العقلى التى دعو اليها ـــ نحو التحليل العقلانى لكافة النظم الاجتماعية القائمة ، واهتموا بمناقشة القيم والافكار والمعتقدات التى كانت ســـائدة فى المجتمع الاوروبى خلال تلك الفترة بصـــفة خاصة . وقد نبع اهتمامهم هذا من سعيهم للقضاء على الفلسفة الاخلاقية والسياسية السائدة واقامة فلســـفة علمانية ذات عناصر عقلانية فى المحل الاول . وعلى الرغم من ذلك فان النتيجـــة لم تكن علمية تماما ، حيث احتوت روح النقـــد العقلى ـــ الى درجة ما ـــ على بعض الاحكام القيمة التى ادت الى قلب التعقل والعـــلم الى عالم من الآراء والافكار العـــامة أو النظرات الفلسفية لمجرى التاريخ والتطور البشرى ارتبطت بافكارهم حول التقـــدم والتغير والانسانية والعالمية وفوق كل ذلك بالحرية وحقوق الافراد فى تقرير قيمهم ومعتقداتهم . وعلى اى حال لقد كانت فلسفة التنوير تشكل أيديولوجية معينة تسعى الى تغير نظرة الافراد الى العالم بصفة عامة والى امور الحكم وعلاقة الحاكم بالمحكومين ومصادر القانون والعدالة والنظام والحقوق والواجبات بصفة خاصة من اطار الفلســـفة الاخلاقية الدينية لينظر الى كل هذه الامور فى اطار غير دينى(١) . ولذلك نجد أن العديد من فلاسفة التنوير قد اهتموا بدراسة وقائع وممارسات

---

(١) للوقوف على مزيد من التفصيل ـــ باللغة العربية ـــ حول هـــذا الموضوع راجع : أحمد أبوزيد ، العلوم الانسانية والصراع الايديولوجى ؛ مجلة عالم الفكر الكويتية ، المجلد الثانى ، العدد الثانى ، ١٩٧١ . وكـــذلك محمود عوده : علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية ، مكتبة سعيد رافت ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

الناس اليومية ومدى انتظام حدوثها ، وظهرت فى اطار ذلك الفلسفة الوضعية Positivism كاستجابة محافظة لحركة التنوير او النقد العقلى ، وسعت الى تحقيق معرفة امبريقية فى اطار نموذج ادعى انصارة انه يماثل نموذج العلم الطبيعى . وقد نادى انصار هذه الفلسفة بضرورة دراسة الوقائع الاجتماعيه باعتبارها اشياء خارجة عن ذات الانسان ، واكدوا ضرورة فصل الذات الفاعلة (الفرد او الباحث) عن موضوع المعرفة او قضية الدراسة ، واعتبروا ذلك هو الضمان لتحقيق الموضوعية فى العلم الاجتماعى . وسوف يتضح لنا من خلال مناقشة مؤلف الكتاب لآراء مختلف العلماء الذين تناولهم فيما بعد كيف أن موقف هؤلاء لم يكن سوى وهم خادع . وقد شكلت الفلسفة الوضعية الاساس لايديولوجية لتشكل الفكر البرجوازى والسعى للمحافظة على النظام وتدعيمه . .

ويتناول المؤلف الفكر الماركسى — حول العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى — والتطورات التى طرأت عليه فى ثلاثة فصول متتالية يعرض فيها لمواقف كل من هيجل وكارس ماركس وجورج لوكاش . فيشير الى ان فلسفة هيجل Hegel تعد امتدادا للفلسفة المثالية الالمانية التى كان يمثلها كانت Kant من قبل . وكيف ان هيجل فى اطار تطبيق منهجه الجدلى على المعرفة قد نظر الى المعتقدات الدينية والفلسفية باعتبارهما يشكلان (الموضوع ونقيضه) ويتيح تفاعلهما الوصول الى مركب جديد رآه هيجل فى « الروح الكلية » التى تمثل الحقيقة المطلقة . وقد انقسمت الحركة الهيجلية الى ثلاث اتجاهات رئيسية فيما بعد حددها ستروس Strauss فى اليمين والوسط واليسار . ولقد كان لاعمال انصار الاتجاه الاخير — اليسار — والذين عرفوا فيما بعد بالهيجلين الشبان تاثيرا واضحا على تطور الفكر الهيجلى اكثر من غيرهم . وقد طور ماركس العديد من افكاره بينهم على الرغم من اختلافه معهم . حيث ذهب ماركس الى انه على خلاف الهيجلين الشبان قد استخدم جدل هيجل بطريقة عملية . وتناول المجتمع بوصفه واقعا تاريخيا وكبناء من العلاقات الاجتماعية الواقعية أكثر من مجرد كونه فكرة مجردة « الذات الكلية » او « الوعى الكلى » كما فعل الهيجليون الشبان ، واكثر من كونه — أى المجتمع — واقعا حسيا ملموسا وفقا لمفهوم فيورباخ .

ولقد أوضح ماركس فى تحليله للعلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى انه فى المراحل الاولى للوجود الاجتماعى كان تشكل الافكار والوعى يتم بصورة ترتبط مباشرة بالنشاط المادى ومجرى الحياة اليومية للافراد واسلوب حياتهم ، ومن ثم كان الافراد هم الذين يطورون افكارهم ومفاهيمهم . ولم يكن وعيهم أكثر من مجرد ادراكهم للوجود . ومع تطور الحياة المادية وانفصال العمل

الفكرى أو العقلى عن العمل اليدوى ، طورت الفئة المسيطرة مجموعة من الآراء والافكار والقيم التى تعبر عن اهتماماتها ومصالحها وسعت الى فرضها على باقى الافراد أى شكلت لنفسها ايديولوجية خاصة بهـا . وتعد هذه الفكرة أساس النموذج التحليلى لعلم الاجتماع المعرفى لدى ماركس والتى تطورت عنها الافكار الماركسية حول العلاقة بين المعرفة والبناء الاجتماعى . وهكذا يمكن القول ان ماركس رأى المعـرفة والوعى كانعكاس للواقع الاجتماعى التاريخى الذى يعيشه الافراد . وربط محتوى المعرفة وطرق تشكلها ببنـاء القوة السائد فى المجتمع . ويقرر ان الطبقة التى تسيطر على القوى المـادية فى المجتمع تمتد سيطرتها ايضا الى مجال المعرفة والثقافة تنظم وتشكل أفكار عصرها . وذهب الى ان الفكر والمعرفة لا يمكن أن يتغير من خلال طرق عقليه وانما من خلال تحول الاوضاع المادية التى يوجد فى اطارها . ولذلك رأى الثورة وليس التغير العقلى هى القوة المحركة للتاريخ ، وان هذه الثورة مستحيلة الحدوث بدون توافر كل من الشروط الموضوعية (المادية) والذاتية (المعرفية العقلية) اللازمة لانجاحها ، بمعنى لابد أن يكون هناك طبقة ثورية — البروليتاريا فى المجتمع الراسمالى — وأن يكون لدى افرادها وعى بفكرة الثورة .

وهكذا يرى ماركس أن الرابطة بين الفكر والوجود — او المعرفة والبناء الاجتماعى — ليست رابطة بين عنصرين منعزلين تماما ، وانما هى رابطة تجمع بين عنصرين بينهما علاقة تأثير متبادلة ، غير أن بعض الماركسيين قد طوروا افكار ماركس فى اتجاه مادى بحت يقـوم على حتمية متطرفة ترى المعرفة كانعكاس ميكانيكى او مباشر للحياة المـادية ، الامر الذى ادى الى عجز تحليلاتهم عن تقديم تفسيرات مقنعة لسيادة اشكال خاصة من الوعى وانماط معينة من المعرفة لدى بعض الطبقات الاجتماعية وفى تكوينات اجتماعية محددة تناقض مع الواقع المادى الذى يعيشونه .

ويتناول الفصل الثالث اسهامات جورج لوكاش Lukacs فى تطوير الافكار الماركسية حول العلاقة بين المعرفة والبنـاء الاجتماعى وذلك فى مؤلفه الذائع السـيط « التاريخ والوعى الطبقى » History and Class-consciousness

ويبدأ الفصل بالاشارة الى الاصول الفكرية التى طور فى اطارها لوكاش افكاره فيشير المؤلف الى تأثره بأفكار كل من ماكس فيبر وجورج زيمل وأفكار الكانتية المحدثة فى ألمانيا بصفة عامة التى تهتم بالفهم الداخلى او التأويل الذاتى أكثر من اهتمامها بالنماذج السببية . بالاضافة الى تأثره بماركس ويشـير المؤلف الى ان كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » يتضمن ثلاثة جوانب هامة . يتضمن الجانب الاول مفهـوم الوعى الطبقى الذى طوره لوكاش من قراءاته لهيجل وتعرضه

بصـــفة خاصة لفكرة دلثى Dilthey ـــ وهو هيجل محدث ـــ حول علم الروح "science of "spirit ومفهومة ـــ دلثى ـــ عن « روح الشعب » spirit of the People ويتضمن الجانب الثانى من الكتاب وهو الجانب الذى يعكس تأثر لوكاش بأفكار فيبر وزيمل تأكيدا لضرورة فهم الظواهر الاجتماعية فى اطـــار منهج او اسلوب التأويل والفهم الذاتى . وقد عالج لوكاش فى هذا الجزء وعى البروليتاريا فى ضـــوء فهمها للواقع بدلا من تفسير ذلك الوعى اورده للاطار الاجتماعى الذى توجد فيه . أما الجانب الثالث والذى يعكس تأثر لوكاش بكارل ماركس فهو النموذج التحليلى لماركس او المنهج الجدلى الذى صاغ فى اطار لوكاش أفكاره .

ان ما قدمه لوكاش ـــ باختصـــار ـــ هو اعادة تقديم فكر ماركس كما يرى فى عينى هيجل مع تطعيمها بعناصر اخرى مستمدة من الفهم الفيبرى للراسمالية الرشيدة .

ويتناول الفصل الرابع افكار مدرسة فرانكفورت فى المانيا ويكشف المؤلف عن تأثرها بالافكار الماركسية الهيجلية كما ظهرت فى اعمال لوكاش ، كما يتضمن الفصل ذاته افكار جولدمان Goldman فى فرنسا وسعيه لتطوير الكثير من الجوانب النظرية فى فكر لوكاش فى اتجاه انسانى وتأسيسه لما يعرف باسم علم اجتمـــاع الادب Sociology of Literature ويشـــترك جولدمان مع مدرســـة فرانكفورت فى رفضهما للمعرفة الوضعية ولذا كان لأعمالهما آثار واضحة على تطور علم الاجتماع النقدى . ولقد اعتبر جولدمان ان علم الاجتماع فى صورته غير الماركسية قد أصبح خادما للراسمالية ســـاعيا نحو تدعيم الاهداف التى تسعى اليها ، وهو الامر الذى جعل بحوثه ودراساته تتجه نحو الكشف عن المشكلات والقضـــايا الميكروسوسيولوجية Micro-Sociology وتفتقد بالتالى القدرة على النظرة الكلية ورؤية التغيرات الكيفية للابنية الاجتماعية والابعاد التاريخية للحقائق الاجتماعية . وقـــد اعتبر جولدمان علم الاجتماع المعرفى الاساس الذى يمكن من خلاله نقد التيار الوضعى فى علم الاجتماع ، طالما انه ـــ اى علم الاجتماع المعرفى ـــ يسعى الى تحليل الاسس الواقعية للمراحل السوسيولوجية . وفى اعتقاد جولدمان ان علم الاجتماع المعرفى يتضمن شكلا من اشكال علم الاجتماع الفلسفى التاريخى الانسانى فى مقابل علم الاجتماع الوضعى . واهتم جولدمان بتحليل الادب والفن ، وحاول تعريف الطبقة فى ضوء الوعى ورأى ان أســاس الفلسفة والادب والفن يكمن فى الطبقة وعلاقاتها بالمجتمع . وان الحـــد الاقصى للوعى الممكن Potential consciousness يشكل نظرات للعالم يمكن التعبير عنهـــا فى مجال الدين والفلسفة والفن وهو جماع ما أطلق عليه الايديولوجية .

ويتناول الفصل الخامس اسهامات ماكس شيلر Max Scheler فيوضح المؤلف انه على الرغم من انه يشترك مع لوكاش ومدرسة فرانكفورت وجولدمان فى وجهة نظرهم حول دور العلم الوضعى كخادم للراسمالية والمجتمع الغربى ، الا انه قد تميز عنهم بانه نظر الى علم الاجتماع المعرفى كاداة سياسية يمكن أن يقدم اساسا للممارسة السياسية ، وكاسلوب يساعد فى حل الصراعات الايديولوجية عن طريق تمكينه كل طرف من أطراف الصراع من معرفة اوجه القصور فى وجهة نظره . واعتبر شيلر الوضعية فلسفة احادية تعبر عن مصالح البرجوازية ، كما اعتبر الماركسية فلسفة احادية ايضا ، الا انه اعتبرها أكثر التحليلات الاحادية دقة وصدقا فى الكشف عن التوترات القائمة فى المجتمع الراسمالى والمعرفة التى تكتسبها كل من الطبقات الاجتماعية حول البنـــاء الاجتماعى .

وتكشف آراء شيلر فى محاولته التوفيق بين الماركسية والمثالية عن تبنية لموقف فينو مينولوچى حاول من خلاله أن يفسر ارتباط العلاقات الابستمولوجية (المعرفية) التى تربط بين البشر بالاطار الكونى الذى يحيط بهم بما يشتمل عليه من عوامل مادية وفكرية على حد سواء .

ويتناول الفصل السادس جماع آراء ماكس فيبر Weber ويكشف عن جوهر اسهامه ، ويبدأ الفصل بالاشارة الى ان فيبر قد تأثر بالكانتية المحدثة عند ريكرت والنسبية التاريخية عند دلثى بالاضافة الى افكار ماركس ، فقد عارض فيبر النزعة الكلية holistic واعتبر الفرد وحدة التحليل أو الدراسة ورأى أن ســـلوك الافراد يمكن فهمه فى أطار ما أطلق عليه عـــلم الاجتماع التأويلى interpretive sociology من خلال فكرة الفهم الذاتى Verstehen التى أشار اليها دلثى بل واعتبرها فيبر الاسلوب الوحيد الذى يتيح الكشف عن معانى السلوك ، كما قبـــل بعض تفسيرات ماركس لبعض المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية .

وعلى الرغم من أن فيبر قد اضفى أهمية كبيرة على دور الفكر والمعرفة فى تغير البناء الاجتماعى ، الا انه لم يقدم تحليلا أحاديا للعلاقة بين المعرفة والبنـــاء الاجتماعى ، واكد على اهميه الكشف عن ارتباط مجموعة كبيرة من العوامل فى اى موقف أمبيريقى . ويرى المؤلف ان السبب فى اضـــفاء هذه الاهمية على الافكار والمعـــرفة من جانب فيبر يرجع الى اهتمـــامه بعملية الرشد فى المجتمع الراسمالى الذى كرس كل اعماله لدراستها .

ويتناول الفصل السابع موقف دور كايم Durkheim من العلاقة بين الفكر والبنـــاء الاجتماعى ويعرض لذلك من خلال كتابه « الصور الاولية للحيـــاة

الدينية » حيث يحوى نظرية دوركايم فى المعرفة ، وتقوم هذه النظرية على أساس أن المعرفة كظاهرة سوسيولوجية لا يمكن تفسيرها الا بظواهر جمعية . واعتبر دوركايم الدين الصورة المعرفية الأولى التى تطورت منها كل أشكال المعرفة ، وأن الدين ما هو الا تجسيد رمزى للمجتمع ، وتعبير معرفى عن العلاقة بين التنظيم الاجتماعى والبيئة الطبيعية التى يوجد فيها . واعتبر الديانات البدائية ــ الصورة الاولية للدين ــ كتجسيد حى يكشف عن هذه العلاقة (ولعل ذلك يفسر لنا سر اهتمامه بدراسة الصور الاولية للحياة الدينية والتوتمية على وجه الخصوص) .

اما مناهج دوركايم فى اكتساب وتحصيل المعرفة عن الواقع والتى حددها فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » فتؤكد ضرورة معالجة الوقائع الاجتماعية كأشياء ، وطالب بفصل الذات عن موضوع الدراسة وهو الامر الذى يكشف عن اتجاه وضعى خالص يؤكد النزعة العلمية المفرطة التى اصبحت موضوعا للنقد من جانب علم الاجتماع المعرفى .

ويتناول الفصل الثامن اسهامات كارل مانهايم Mannheim باعتباره امتدادا لكل من فيبر وماركس ، والقضية الاساسية التى يقوم عليها تصور مانهايم للعلاقة بين الفكر والبناء الاجتماعى تقوم على اساس أن الافكار ليست بناءا للحقيقة الكلية بل انها ترتبط ارتباطا مباشرا بالاطر الاجتماعية التى توجد فيها . ومن ثم راى ان الفكر يختلف باختلاف هذه الاطر الاجتماعية . واتجهت اعمال مانهايم للكشف عن الاسس الاجتماعية للافكار والايديولوجيات وركز على دور جماعات الصفوه حيث راها هى المتحكمة فى كل شىء وهى التى تقرر مكونات المعرفة وهى التى تحدد الاطار العام للصراع بين الايديولوجيا واليوتوبيا فى الممارسة السياسية بين مختلف الصفوات الفكرية التى تمثل بدورها مختلف الشرائح الاجتماعية . ولذلك راى مانهايم أن علم الاجتماع المعرفى ذا هدف مزدوج ، فهو من ناحية منهج للبحث عن العلاقة بين الفكر والبناء الاجتماعى وهو فى الوقت نفسه اداة سياسية للكشف عن الاسس السياسية والمصالح الفئوية المرتبطة بالافكار الايديولوجية المختلفة .

ويعرض الفصل التاسع والاخير للاتجاهات السوسيومينولوجية فى علم اجتماع المعرفة(١) . فيشير المؤلف خلاله الى اصول هذه الاتجاهات فى أعمال

---

(١) للوقوف على مزيد من التفصيل ــ كتب بالعربية ــ حول مضمون افكار انصار هذه الاتجاهات ومدى اسهامها فى تطور النظرية الاجتماعية راجع : أحمد زايد ، الاتجاهات النقدية فى علم الاجتماع الغربى . دراسة لمشكلة النظام ، تحت الطبع ، دار المعارف ، القاهرة . وكذلك سمير نعيم ، النظرية فى علم الاجتماع دراسة نقدية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

هوسرل والفرد شوتز وكيف تطورت هذه الاتجاهات فيما بعد فى أعمال بيرجر ولاكمان اللذان أكدا أنه لا يمكن فهم الواقع الا من خلال الوقوف على معرفة الافراد الذين يعيشونه .

ثم يتناول الفصل أيضا التطور الذى لحق بهذه الاتجاهات على يد جورج هربرت ميد وتأكيده على أن اكتساب المعرفة بالواقع يتم من خلال عملية التفاعل الرمزى فى المجتمع . ويشير المؤلف لكيفية تجمع هذه الاتجاهات فيما يطلق عليه الاثنوميثودولوجى Ethnomethodology وهو اتجاه يسعى للكشف عن القواعد التى تنظم السلوك كما تتبدى فى اسلوب الحياة اليومية للافراد .

تلك باختصار هى أهم الافكار الواردة فى فصول هذا الكتاب وفى ختام عرضنا لهـا نرى هل سيتيح علم الاجتماع المعرفى تخليص علم الاجتماع من مضامينه الايديولوجية من خـلال الكشف عن انتماءاته الفكرية والسياسية ؟ أم سيظل علم الاجتماع علما أيديولوجيا يسـتخدم كسلاح من جانب مختلف الاطراف المتصارعة ؟ وهل يفلح علم الاجتماع المعرفى فى تقديم أسس معرفية للممارسات السياسية وحل الصراعات الايديولوجية ؟ أم أنه سوف يستخدم كسلاح لقمع هذه الصراعات ؟ ان ذلك ما سوف تكشف عنه التطورات المقبلة فى هذا الفرع من فروع علم الاجتماع .